أ.د. زياد خليل محمد الدغامين
عميد كلية الدراسات الفقهية والقانونية/ جامعة آل البيت - الاردن

دراسات ومقالات

واقعية خطاب الوحي كتابا وسنّة(*)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله، وصحبه، ومن والاه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد،

فإن الخطاب الإسلامي المعاصر الجاري على ألسنة الدّعاة والخطباء والوعّاظ يعاني وجوها متعدّدة من القصور في لغته، وأسلوبه، وموضوعاته وقضاياه، وأهمّ أوجه هذا القصور أنّه - في الأعم الأغلب - واقع في مكان غير مكانه، وزمان غير زمانه، بمعنى أنّه لم يعد يتّصف بالواقعية التي هي إحدى الخصائص المهمّة للخطاب الإسلامي.

إنّ الخطاب الإسلامي الجاري اليوم على تلك الألسنة موغل في أعماق التراث، ومستمدّ مادّته وقضاياه من بطون الكتب التي سطّرها العلماء في القرون الماضية، واتّسم بحمل الصبغة التراثية في لغته وأسلوبه وقضاياه واهتماماته. ولم يحسن الكثير - ممّن يعنيهم الأمر - استثمار لغة التراث ونصوصه، وتوظيف المناسب منه في خطاب النّاس. وكذلك لم يراع هذا الخطاب فئة

المخاطبين من حيث دينهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأعرافهم، واستوت كل الفئات وانتظم خطابها في سلك واحد، ممّا أحدث نفرة وحذرا من تلقّي هذا الخطاب أو الاستماع له.

لقد تميّز خطاب الوحي قرآنا وسنّة بخصائص عديدة كالشمول والعالمية والواقعية، هذه الخصائص وغيرها مكنت له من الامتداد في ساحة النفس الإنسانية حتى وصل إلى أعماقها، فأنشأ قناعات راسخة بكل العقائد والمبادئ والتصوّرات والقيم. ومكنت له - كذلك - من الامتداد في ساحة الأرض حتى بلغ مغربها ومشرقها، وشمالها وجنوبها، فكان أكثر خطاب مؤثر في أمم الأرض وشعوبها، وكان أكثر خطاب مستقطب لأفراد الأمم والشعوب، وهو الخطاب الوحيد الذي يزداد اتباعه ولا ينقصون؛ كل ذلك بسبب ما تميّز به هذا الخطاب في خصائصه وقضاياه ولغته وأسلوبه من قدرة وفاعلية في التأثير.

إنّ المخاطبين في مفهوم الوحي صنفان: مؤمن وكافر. وقد نزّل القرآن خطابه إلى كل فئة بما يناسبها. فخاطب المؤمنين بما لم يخاطب به الكافرين، وخاطب الكافرين على غير خطابه للمؤمنين. كذلك، النّاس صنفان أمام الخطاب الإسلامي: بالغ عاقل، وغير بالغ، وقد وجّه الوحي خطابه إلى كل فئة بما يناسبها ويلائمها. ومن الفرض الواجب على الدّعاة ومعلمي النّاس الخير أن يدركوا هذه المعاني في خطاب الوحي، ليقع خطابهم للنّاس في وضعه المناسب.

وسيعرض هذا البحث لخاصية واحدة من خصائص هذا الخطاب، وهي الواقعية، وسيبيّن مظاهر تجلياتها، وسيعرض قبل ذلك إلى مفهوم الخطاب الإسلامي لغة واصطلاحا، ويبيّن دلالة الخطاب في السياق القرآني، والله وليّ التوفيق.

في معنى الخطاب

يعود «الخطاب» في أصله إلى الفعل الثلاثي «خطب»، ومعنى «الخطاب» على ما قال الراغب في مفرداته: «المراجعة في الكلام»، و«الخطب»: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب (ص ١٥٠). وذكر الزمخشري في الأساس أنّه المواجهة بالكلام[١]، وذكر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنّ الخطاب هو المحاورة[٢]، وعليه فالخطاب يشمل المراجعة والمحاورة والمواجهة، وهي معاني صحيحة بحسب طبيعة المدعوين، وقضية الخطاب وموضوعها، فيمكن للخطاب أن يكون وارداً بأسلوب الحوار، أو المواجهة، أو المراجعة. وقد ورد ذكر الخطاب - في القرآن - في الآيات الكريمة الآتية:

قال سبحانه: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً»[٣]. فهنا يعني المواجهة أو المراجعة بما هو خطب وأمر عظيم. ويفهم من الآية أنّ السفيه إذا تحدّث في القضايا العظيمة فالأولى تركه وعدم مناقشته، فجهلهم لن يغيّر من واقع الحقائق شيئا، قال الرازي: «إنّ الإغضاء عن السفهاء، وترك المقابلة مستحسن في العقل والشرع، وسبب لسلامة العرض والورع»[٤].

وقال سبحانه: «ولا تخاطبني في الذين ظلموا»[٥]. والخطاب هنا المراجعة في أمر عظيم، وقد نهى الله تعالى نوحا عليه السلام أن يسأل نجاة الذين ظلموا من النّاس عامّة أو من أهله خاصّة: لأنّ فيه خرما لقانون العدالة الإلهية، وسنة الله تعالى في الذين ظلموا.

وقال سبحانه في حقّ نبيّ الله داوُد عليه السلام: «وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب»[٦]. ويعني الخطاب هنا القدرة على المواجهة وإقناع الخصم، ذكر الرازي في معنى الخطاب هنا أنّه: «القدرة على تعريف الإنسان الغير الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب، فمن النّاس من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم، بل يكون مختلط الكلام، مضطرب القول. ومنهم

من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه. ومنهم من يكون قادرا على ضبط المعنى، والتعبير عنه إلى أقصى الغايات، وكل من كانت هذه القدرة في حقّه أكمل، كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية في حقّه أكمل. وكل من كانت تلك القدرة في حقّه أقل كانت تلك الآثار أضعف، فالخطاب هو كمال حاله في النطق»[٧].

وقال تعالى: ﴿فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب﴾[٨]. كذلك القدرة على المواجهة وإقناع الخصم.

وقال تعالى: ﴿ربّ السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا﴾[٩]. وهنا يشمل المعاني كلها. قال في التسهيل: «أي : لا يملكون أن يخاطبوه بمقدرة ولا غيرها»[١٠]. وليس لأحد قدرة أو جرأة على المواجهة أو المراجعة أو المحاورة مهما كانت طبيعة كلامهم، أو موضوعه أو قضيته، فالخطب أعظم من ذلك وأكبر.

في ضوء الآيات الكريمة السابقة يمكن القول: أنّ الخطاب في مدلوله القرآني يعني القدرة على إيصال الكلام إلى ذهن المخاطب بأحسن عبارة وأفضلها وأكملها بحسب ما يتناسب مع الغاية والمقصود، ويكون ذلك في عظائم الأمور.

وملحظ أخر في مدلول الخطاب هو أنّ المخاطِب والمخاطَب لا يقفان على أرضية واحدة من التفكير والاعتقاد، أو قد يكون الجوّ بينهما مشحونا بالخلاف وعدم الاتفاق، وهذا يعني أنّ الخطاب الذي هو إيصال الكلام إلى الآخر يهدف إلى تأسيس معتقد وبناء تصوّر، أو إلى حسم خلاف، أو إلى غير ذلك من الأمور ذات الأهمية الكبيرة.

وفي مثل قوله تعالى: ﴿لا يملكون منه خطاباً﴾ تحتّم هيبة الموقف أن لا يكون فيه كلام إلا لذي العظمة والجلال، والكبرياء والكمال.

معنى واقعية خطاب الوحي

نعني بالواقعية في خطاب الوحي - القرآن الكريم والسنّة النبوية - تلك الصورة من التعبير التي تنزلت عليها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في مخاطبة الإنسان في كلّ ما يهمّه في حياته الدنيا والأخرى، موازنة بين متطلبات الخطاب وفحواه، وبين إمكانات الإنسان المخاطب بهدف تحقيق ذلك على أرض الواقع، ومعنى ذلك: أنّ الخطاب قد يستلزم أمراً أو نهيا، وقد يستلزم تأسيسا لحقيقة أو إنشاء لها، أو إبطالا لمقولة أو عقيدة، وقد يستلزم خبراً يحتاج الإنسان إلى معرفته، كل ذلك في ضوء قدرات الإنسان الذهنية والروحية والمادية، من حيث ظهور ذلك كلّه في سلوك الإنسان واقعا ملموسا. إنّ الواقعية - بعبارة أخرى - تعبير عن ذلك التفاعل بين قضايا خطاب الوحي وحقائقه وبين الإنسان، وما ينتج عنه ويتحقّق به من سلوك في أرض الواقع؛ فالواقعية قدرة مؤثرة للنصّ وخاصّية فيه من شأنها أن تعمل على دفع المخاطبين إلى التحقّق به في أرض الواقع.

عصرنة الخطاب الإسلامي

إذا اتضح هذا، فأودّ أن أشير في البداية أنّه لا يمكن وصف الخطاب الإسلامي بأنّه قديم أو معاصر فيما إذا كان ذلك الخطاب هو خطاب الوحي، كتاب الله وسنّة رسوله(ص) والسبب أن خطاب الوحي لا يبلى ولا يتآكل حتى يصار إلى تجديده أو عصرنته أو تطويعه، لكن هناك مقتضيات أمر بها الوحي في خطابه للنّاس، تستوجب خطاب النّاس بحسب لغة العصر، فالذي اختلف هنا ليس الخطاب، ولا محاور الخطاب، ولا قضاياه، ولا ميادينه، ولكنّ الذي اختلف هو كيفية إيصال الخطاب بمقاصده وحقائقه بالصورة المقنعة التي تعتمد على قوّة الحجّة والدليل، وتتناسب مع إمكانات الإنسان المعنوية والمادية.

إنّ إيصال «البلاغ المبين» إلى النّاس لتقوم الحجّة عليهم لا يتم إلا وفق متطلبات الحياة المعاصرة في شؤونها وقضاياها ومستجدّاتها، وعلى ذلك ينبغي أن يتنزل الخطاب الإسلامي في واقعيته إيفاء لمتطلبات الحياة، وتجسيدا لحقائق الوحي وهدايته ومقاصده.

ونخلص إلى القول في هذا المعنى، أنّ الخطاب الإسلامي في قضاياه ومحاوره وميادينه ينبغي أن يصبح - في أهميته - بالقدر الذي يتّصل بالإنسان في معتقداته وتصوّراته، وفي فكره وسلوكه، وفي أعماله وأقواله؛ ليكون الخطاب أنفذ أثرا في حياة الإنسان والأمة. أو الفرد والجماعة. ومن هنا يمكن فهم عصرنة الخطاب القرآني أو الإسلامي، وعلى سبيل المثال، يمكن القول إنّه ليس من المعاصرة في شيء أن أثير موضوع معاملة الإسلام للرقيق، فأسلط الضوء على موضوع الرقّ، والأحكام الخاصّة بهم من حيث معاملتهم، ونكاح إمائهم.. أو أن أثير موضوع تكفير اليهود والنّصارى، وأبين أسباب تكفيرهم...

إنّ عصرنة الخطاب الإسلامي تعني أن يكون الخطاب خطابا للإنسان موجّها إليه في أعماقه، لا خطابا عن الإنسان، ولا خطابا تراثيا في لغته أو أسلوبه أو قضاياه؛ فالأمّة اليوم ليست معنية بخطاب المتكلمين، أو «علم الكلام»؛ ليكون المدخل إلى فهم حقيقة الاعتقاد وأصوله، وردّ الشبهات عنها. ولا يهمّها - كذلك - لغة أهل الفلسفة والمنطق في خطاب الإنسان؛ لأنها لم تعدّ اللغة التي تحظى بإدراك المخاطبين، أو تثير اهتمامهم، على ما لتلك العلوم من قيمة وأهميّة، أعني: علم الكلام والمنطق والفلسفة.

ولعلّ أهمّ ما يمكن تناوله في هذا البحث أمور ثلاثة ، كلّ واحد منها جدير بأن يلتفت إليه الخطباء والوعّاظ وأصحاب الدعوة والفكر.

أوّلها: طبيعة الخطاب القرآني.

وثانيها: بناء الخطاب القرآني.

وثالثها: مظاهر واقعية الخطاب القرآني.

ولتوضيح كلّ أمر من هذه الأمور، أقول وبالله التوفيق:

أولاً: طبيعة الخطاب القرآني

الناظر في الخطاب الوعظي الديني اليوم يجده متّجها إلى أحد أمرين:

الأول: إمّا أن يكون متّجها إلى إثارة عواطف الجماهير نحو قضايا هي أكبر من إمكانات المخاطَبين والمخاطبِين أنفسهم، وليس هذا نكرانا لأثر العاطفة في الخطاب، ولكن العاطفة لا تحلّ قضايا ولا مشكلات، ولا تصمد أمام التحدّيات، والعاطفة ذات أثر مؤقت، وربما لا ترتكز على قناعات.

إنّ القرآن لم يثر عاطفة المسلمين في مكة لمواجهة قريش وأصنامها، لأنّها في ذلك الوقت أكبر من إمكانات المجتمع الإسلامي كلّه، ولكنه أتّخذ أسبابا علمية موضوعية ومنهج عليها سبل المواجهة مع الشرك والوثنية.

والقرآن لم ينقل معركته مع الشرك والوثنية العالمية إلى التغيير المباشر باليد، ولعلّ أول عمل مباشر أذن الله به في التغيير كان بعد مضيّ بضعة عشر عاما في معركة بدر التي هي الأخرى فرضت على المسلمين فرضا.

والقرآن لم يعلن حربا، ولم يفتح جبهة، ولم ينشئ صراعا مع أتباع الديانات الأخرى من يهودية ومسيحية ومجوسية وغيرها، وكان تعامله على أساس قوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ (الكافرون ٦)؛ لأنّ أسلوب حسم الخلافات أو القضاء عليها بالقوّة أسلوب محكوم عليه بالفشل الذريع.

الثاني: أو تراه متّجها إلى جزئيات وخلافيات توارثتها أجيال الأمّة جيلا بعد جيل، الأمر الذي يولّد ثغرات كبيرة وفجوات عميقة في الخطاب الديني المعاصر، وأخطر ما فيه أثره في شرذمة الأمّة وتفريق كلمتها.

ففي هذا الخطاب المعاصر لابد من إثارة تساؤلات تبحث عن موقع الإنسان المتصرّف في شؤون الأرض أين هو في هذا الخطاب؟ وأين الإنسان المكلّف بعبادة واسعة شاملة؟ وأين الإنسان الذي هو أكرم مخلوق في هذا الكون؟ وأين الإنسان المأمور بحرث مزرعة الأرض، والناظر المسؤول عن وارداتها ومصاريفها بما جهّز به من مئات العلوم وألوف المؤهلات؟ وأين الإنسان الحامل للأمانة الكبرى؟ وأين الإنسان الذي هو الآية الكونية الكبرى لقرآن الكون، والذي هو الآية الكاملة لتجليات الاسم الأعظم في ذلك القرآن الكوني؟ أين الإنسان الذي هو أعظم معجزات القدرة الصمدانية، والأكثر فهما للكلام الرباني، والذي هو أعجوبة الخلق، لما انطوى فيه العالم الأكبر، ولما تشهد جميع أجهزته بأنّه مخلوق للسير قدما نحو الأبدية والخلود (الكلمات ١٣٧ - ١٣٨). إنّ الخطاب الوعظي الدعوي لم يرقَ بعد إلى هذه النظرة في خطابه للإنسان حيث خاطبه بأعمال الوضوء، واستعمال السّواك، وصلاة التراويح، وصدقة الفطر.. بل إنّ الخطاب المعاصر قد قزّم الإنسان إلى أبعد حدّ، وحصره عند حدود شعائر تعبدية محدودة، وأخلاق مسلكية بسيطة! ولم يراع هذا الشمول في كينونة الإنسان وطبيعته ووظائفه وآماله وطموحاته.

الثاني: بناء الخطاب القرآني

لقد اتّجه خطاب القرآن بالإنسان نحو الكمال والشمول، وهو اعتراف واقع بطبيعة هذا الإنسان، إنّ الغرب اليوم إذا كان يكتب عن «الإنسان ذلك المجهول» فعندنا لا يمكن إلاّ أن نقول ونكتب: «الإنسان ذلك المعلوم»؛ فقد أوقف القرآن الكريم الإنسان على الأبعاد الكاملة الشاملة للنفس الإنسانية، وعلى ذلك الأساس بنى خطابه إلى الإنسان.

إنّ الخطاب القرآني قد بني على أساسين:

الأول: العلم الكامل بطبيعة الإنسان وإمكاناته وقدراته، ومشاعره وأحاسيسه، وعاطفته ووجدانه، وروحه وبدنه، وعقله وتفكيره. وممّا يبيّن ذلك من آيات القرآن الكريم؛ قوله تعالى: ﴿ يريد الله أن يخفّف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾[١١].

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[١٢].

﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾[١٣]: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[١٤]: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة وشيبة﴾[١٥].

الثاني: العلم الكامل بواقع الإنسان، والأحوال التي يعيشها، والتحديات التي يواجهها، وما يعترض حياته من عقبات ومشكلات؛ كقوله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون﴾[١٦]، وقوله تعالى: ﴿الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً﴾[١٧]. وقوله تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾[١٨]. فمرحلة الضعف والقوّة التي يمرّ بها الإنسان نتيجة الأحوال المحيطة والأوضاع القائمة لها أثرها في نوعية الخطاب وطبيعته.

الثالث: مظاهر واقعية الخطاب القرآني

وتتجلى واقعية الخطاب القرآني في المظاهر الآتية:

١ـ الخطاب بحدوده الممكنة:

وهذا يعني أنّ القرآن الكريم قد خاطب النّاس، فأمرهم ونهاهم، بحسب ما يستطيعون القيام به، ونصوص القرآن شاهدة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها﴾[١٩]. وقوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدّين من

حرج﴾، وقوله تعالى: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ وهذا ابتعاد عن المثالية النظرية التي لا يستطيع الإنسان الرقيّ إليها، وهذا يتطلب من الواعظ والخطيب والداعية إلى الله أن ينظر في قدرات النّاس وإمكاناتهم، ليخاطبهم على قدر ما عندهم من إمكانات وطاقة.

شيء آخر بعيد عن الواقعية، وهو صنيع الخطباء والوعّاظ في مايسلكونه اليوم من ضرب الأمثلة لكل أعمال الخير والبرّ والإحسان من حياة الرسول(ص)، أو حياة أصحابه، وتركيز الأمثلة على هذه الفترة. هذا الأمر يعطي انطباعا مفاده أنّ الإسلام هو ما جرى العمل به في تلك الفترة فحسب، وكأنّ الفترات اللاحقة ليست من الإسلام في شيء ، مع العلم أنّ هناك أمثلة لا تحصى من حياة المؤمنين الصالحين في هذا العصر، تصلح أن تكون قدوة وأسوة، وتمثل قدرة الإسلام على أن يعيش في واقع حياة النّاس إلى يوم الدّين. إنّ الأمثلة المستمدّة من واقع حياة النّاس اليوم لا تقلّ تأثيرا في نفوس النّاس من تلك الأمثلة المستمدة من القرون السالفة.

وأرى أنّ الرسول(ص) قد حقّق ذلك بكل وضوح، فقد قال(ص): «دعوني ما تركتكم، فإنّما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[٢٠]. ذلك أنّ قدرات النّاس متساوية في الترك، فليس هناك فرق بين مؤمن تارك للخمر ومؤمنة، أو شابّ وشيخ كبير، أمّا جانب العمل والفعل فهو ممّا تتفاوت فيه الجهود والأعمال، وكلّ ذلك مرهون بقدر الاستطاعة التي هي في حدود إمكانات المخاطب.

وتأكد هذا المعنى في قوله(ص) فيما روته عائشة أمّ المؤمنين حين قالت: «كان لرسول الله(ص) حصير وكان يُحجّرهُ - يتّخذه حجرة - من الليل فيصلي فيه، فجعل النّاس يصلّون بصلاته، ويبسطه بالنّهار، فثابوا ذات ليلة،

فقال: «يا أيّها النّاس! عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإنّ الله لا يملّ حتى تملّوا»[٢١]. هذا الحديث يضع حدّا للإسراف المفاجئ في العمل المدفوع بنوع حماسة وعاطفة، وهذه عوارض تصيب الإنسان وتغشاه لحظة، ثم ما تلبث أن تفتر أو تبرد. إنّ الخطاب المدفوع بداعية الحماسة فقط لا رصيد له في آيات القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم(ص)، لأنّه لا دوام له في تأثيره وفاعليته، ولذلك يأتي البيان النبوي الذي يبني العمل على أسس صحيحة مقنعة هي في مقدور كلّ مخاطب، فيقول(ص): «أحبّ الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ»[٢٢]. وهو أمر تطيقه النفوس وتقدر عليه، فليس العبرة بالكثرة المنقطعة، فإنّ القلّة الدائمة خير منها. وعليه فما قيمة أن أصلي خمسين ركعة في ليلة القدر، ولا أصلي بعدها القيام في الليلة نفسها من السنة المقبلة!

٢- الخطاب بحدوده المعقولة:

إذا نُظر في خطاب الوحي بحدوده الممكنة، وتأكّد أن ذلك لا يتمّ إلا بالنظر إلى طاقة الإنسان وجهده وقدرته المعنوية والمادية؛ فإنّ هذا الخطاب بحدوده المعقولة لا يتحقق إلا بالنظر إلى موضوع الخطاب نفسه. فلابدّ لهذا الخطاب في موضوعه أن يكون معقولاً لا بحسب اللحظة التي يعيشها الإنسان، ولا يعني هذا أن يكون الخطاب في نفسه معقولا فحسب، بل يجب أن يكون تنزيله على الواقع أمرا ممكنا في نظر العقل، ليس هناك من عوائق أو موانع تمنع من تحقيق ذلك في أرض الواقع. ولأضرب لذلك مثلا، إني لا أستطيع أن أخاطب الناس في «مدينة واشنطن» بضرورة زكاة الغنم والإبل، لسبب بسيط جدّا، وهو أنّ الناس هناك لا يرون الإبل والغنم إلا في حدائق الحيوانات، وليست هي في متناول أيديهم. فخطابهم بزكاة هذه الأموال خارج عن حدود المعقول في الخطاب. مع فرضية ذلك الأمر في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله(ص).

كما لا أستطيع أن أدعو الناس في مدينة الربا «نيويورك» بضرورة ترك الربا، وليس ذلك بسبب إنكار حرمته البيّنة، وليس ذلك بسبب شيوعه وانتشاره إلى الحدّ الذي يستحيل تغييره، بل لسبب بسيط يتمثل في أنّ تلك الدعوة فيها خروج على قاعدة الأولويات، فأول أمر مطلوب من الواعظ أو الداعية أن يبيّن للنّاس سبل الهداية إلى الإسلام، وثاني أمر مطلوب منه أن يقدّم البديل الذي يقي النّاس شرور الربا وآثامه وآثاره.

ومثال ثالث، إنّ الدعوة إلى إخراج صدقة الفطر طعاما في بلد كلّ تعامله بالمال كالأردن مثلا، سيولّد اضطرابات اقتصادية، فسيؤدّي إلى رفع أسعار الأرز الذي هو ليس غالب قوت أهل البلد، مع عدم ورود ذكره في الحديث النبوي، وسيؤدّي - كذلك - إلى تنشيط الاتّجار مع العدوّ الذي يمتلك هذه المادّة، وفي حالة حصار بلد ما من قبل ذلك العدوّ، فإنّ أهله لا يتمكنون من استيراد هذه المادّة ممّا يؤدّي إلى مشقّة كبيرة على النّاس، فضلا عن أنّ الأنفع للفقير أن يأخذها قيمة؛ كي يتصرف فيها وفق مصلحته وحاجاته طالما أنّ المقصود من الهدي النبوي هو إغناء الفقراء في ذلك اليوم.

إنّ سؤالا حريا بالطرح وهو: هل خاطب القرآن النّاس بأمر ليس بمقدورهم فعله أو تركه؟ كلا! إنّ من مقتضيات الخطاب المعقول أن يتحقّق على أرض الواقع بكل يسر وسهولة، وأن لا يبقى مجرد مثاليات بعيدة عن التحقيق، لا يمكن أن تظهر أو تتجلى في سلوكيات النّاس واخلاقياتهم وأعمالهم. ولذلك ورد في كلام بعض السلف: خاطبوا النّاس على قدر عقولهم، وهي دعوة للواقعية في حدودها المعقولة.

٣- الخطاب بحدوده المفهومة:

دعا نبي الله موسى عليه السلام ربّه أن يحلل عقدة من لسانه، وكان يخاف من أن لا ينطلق لسانه في دعوته فرعون، يقول سبحانه وتعالى مخبرا عنه:

﴿قال ربّ اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾[٢٣]. إنّ كل هذا التضرّع إلى الله كان حرصا منه عليه السلام أن يكون خطابه لفرعون واضحا بينا لا لبس فيه ولا غموض، حتى لو في مجرد التأتأة التي هي معوق في إيصال الكلام المفهوم إلى المخاطبين، وممّا ذكره الرازي في بيان وجوه طلب حلّ تلك العقدة قول: «لئلا يقع في أداء الرسالة خلل البتة. ولإزالة التنفير؛ لأنّ تلك العقدة في اللسان قد تفضي إلى الاستخفاف بقائلها وعدم الالتفات إليه. وطلب السهولة؛ لأنّ إيراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون في جبروته وكبره عسر جدّا، فإذا انضم إليه تعقد اللسان، بلغ العسر إلى النهاية، فسأل ربّه إزالة تلك العقدة تخفيفا وتسهيلا»[٢٤].

ويخبر تعالى على لسانه: ﴿قال ربّ إنّي أخاف أن يكذّبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون﴾[٢٥]. كان خوفه من أن يعجز عن البيان فيعجز عن التبليغ، فتتأثر دعوته بذلك.

ويقول سبحانه في موضع آخر على لسانه عليه السلام: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدّقني إنّي أخاف أن يكذّبون﴾[٢٦].

وقد تأكد هذا في قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم﴾[٢٧]. «ومتى ما كان الأمر كذلك، كان فهمهم لأسرار تلك الشريعة، ووقوفهم على حقائقها أسهل، وعن الغلط والخطأ أبعد»[٢٨].

أقول: إنّ البيان الواضح الفصيح الذي يصل إلى قلوب النّاس ومسامعهم دون عقبات أو مشكلات من مظاهر واقعية الخطاب القرآني: فإنّ النّاس يحتاجون إلى فهم الكلام ليسهل عليهم أداء متطلباته ومستوجباته؛ ولذلك ذهب العلماء إلى أن

ليس في القرآن شيء لا يمكن فهم معناه، أو الوقوف على حقائقه ودلالاته، وممّا يتطلبه هذا المظهر أن يكون الخطاب في متناول كل فئات النّاس على اختلاف مستوى التعليم الذي وصل إليه كل منهم، وبذلك ترى خطاب القرآن عاما لا يقف عند حدود فئة معيّنة، كما هو خطاب الفلاسفة والمتكلمين، أو خطاب الصوفية، أو خطاب الأدباء... الذين وقفوا بخطابهم عند فهوم تلك الفئات فحسب.

لقد وصف القرآن في مواطن كثيرة بأنّه كتاب مبين، وأنّه قرآن مبين ومن اسرار ذلك أنّه خطاب موجه الى كل فئات النّاس على اختلاف لغاتهم وألسنتهم إلى يوم الدين والبيان والإبانة من أظهر خصائص القرآن الكريم.

ومعنى الواقعية بحدود المفهوم أن يصل الخطاب القرآني إلى كل فئات النّاس كلّها، وأن يكون في متناول عقولهم جميعاً، وأن لا يكون قاصرا على فئة لم يكتب لها حظ من التعليم، أو فئة نالت القسط الأوفر منه. وإذا نظرنا في واقع الخطابة والوعظ الديني، لا يجد الواعظ أن الخطيب أمامه - بحسب ظنّه - إلا فئة من العوام يسلّيها بحديث معظم مادّته من الإسرائيليات والقصص والأحاديث الضعيفة والموضوعة، وينسى فئة كبيرة مثقفة بثقافة العصر في المجالات كلها.

إنّ الخطاب في حدوده الثلاثة: الممكنة والمعقولة والمفهومة مظاهر متداخلة تتجلّى فيها واقعية الخطاب الإسلامي.

الهوامش:

* - بحث مقدّم إلى مؤتمر الوعظ والإرشاد والخطابة بعنوان نحو خطاب إسلامي معاصر.

١ -أساس البلاغة ص ١٦٧، دار صادر، بيروت ١٩٧٩.

٢ - معجم غريب القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٧، دار المعرفة، بيروت.

٣ - الفرقان/ ٦٣.

٤ - ج ٢٤، ص ١٠٨.

٥ - هود ٣٧، المؤمنون ٢٧.

٦ - سورة ص / ٢٠.

٧ - ج ٢٦، ص ١٨٧- ١٨٨.

٨ - ص / ٢٣.

٩ - النبأ/ ٣٧.

١٠ - ١٧٤/٤. دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٣هـ ..

١١ - النساء/ ٢٨.

١٢ - ق/ ١٦.

١٣ - البلد/ ٤.

١٤ - التين/ ٤.

١٥ - الروم/ ٥٤.

١٦ - النساء/ ١٠٤.

١٧ - الأنفال/ ٦٦.

١٨ - النساء/ ٧٥.

١٩ - البقرة/ ٢٨٦.

٢٠ - البخاري، ح ٧٢٨٨. كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله (ص) ٢٥١/١٣.

٢١ - ح ٢١٥، ١/٥٤٠ مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضيلة العمل الدائم.

٢٢ - مسلم نفسه ، ح ٢١٨، ١٠/٥٤١.

٢٣ - طه/ ٢٥ - ٢٨.

٢٤ - الرازي، ج ٢٢، ص ٤٨.

٢٥ - الشعراء/ ١٢ - ١٣ .

٢٦ - القصص/ ٣٤.

٢٧ - ابراهيم/ ٤.

٢٨ - الرازي، ج ١٩، ص ٨١.